الشعراء/ الملوك

من الظواهر التي تشد الانتباه، والتي لم يتنبه لها عدد من الباحثين، أن شعراء الجاهلية الكبار كانوا - حقيقة لا مجازاً - من الملوك أو أشباه الملوك. كان امرؤ القيس ابن ملك، وتحوّل، خلال رحلة الثأر الطويلة، إلى «الملك الضّليل». وكان عمرو بن كلثوم سيد بني تغلب. وكان عنترة، على الرغم من الرق والسواد، «فارس بني عبس». وكان الحارث بن حلزة من أعيان قومه. وكان لبيد بن ربيعة من سادات العشيرة. وكان طرفة بن العبد من أسرة أرستقراطية. وما كانت حرب البسوس لتنشب لولا وضع المهلهل القبلي المتميز. ولنا أن نلحظ في سجل الشعراء/ الملوك أن وجود من يتكسب بشعره، مثل الأعشى والنابغة، لم يكن القاعدة، بل كان أشبه ما يكون بالنشاز، الخروج عن السلوك الملكي المعتاد.

وإلى جانب هؤلاء الملوك الشرعيين كان هناك عدد من الشعراء ينتمون إلى فئة الملوك المضادّين (إن جاز التعبير). كان الشعراء الصعاليك يعتبرون أنفسهم - بدورهم - ملوكاً يتصرفون كما يتصرف الملوك. كان سخاء حاتم الأسطوري ملكياً بكل المقاييس. وكانت شجاعة عروة بن الورد خصلة ملكية بلا شك أو ريب. ولقد نتذكر هنا أن الخصال الملكية، في العصر الجاهلي،

وربما في العصور كلها، تدور حول الكرم والشجاعة والحكمة، وهي صفات كانت تتوفر في زعماء الصعاليك بقدر ما تتوفر في زعماء المؤسسات القبلية التي خرج هؤلاء الصعاليك عليها.

كانت المعلقات، في حقيقة أمرها أناشيد ملكية. تصف معلقة امرئ القيس ملكاً يلهو ويلعب. ومعلقة طرفة مرسوم شعري ملكي بالتنازل عن أعباء الملك لصالح الحياة العابثة (أو العبثية!). وفي معلقة زهير نجد أنفسنا أمام شاعر/ ملك يمنح جوائز السلام لأميرين من صانعي السلام. ومعلقة عنترة غزل في تلك الصفة الملكية العريقة، الشجاعة. وبوسعنا أن نعتبر معلقة عمرو بن كلثوم أول إعلان حربي ملكي في التاريخ يصدر شعراً.

والمتأمل في شعر المعلقات، والشعر الجاهلي عامة، يجده في أغلبيته متخماً بمدح الشاعر/ الملك نفسه قبل أي إنسان آخر. لا تكاد توجد في الشعر العربي كله نرجسية تعادل نرجسية امرئ القيس. هو الرجل الجذاب الذي لا تستطيع أي امرأة أن تقاومه حتى في الظروف التي تحول بين أي امرأة طبيعية والشبق:

فمثلك حبلى قد طرقتُ ومُرضع

فألهيتُها عن ذي تمائم مُحولِ (١)

---

(١) يقول لنا الرواة: إن حياة امرئ القيس الجنسية الحقيقية كانت أبعد ما تكون عن تصويره الشعري لها، وإن النساء كن يكرهنه، ولعل ما ينطبق على امرئ القيس ينطبق على عدد من شعراء الجنس النرجسيين.

وهو الآمر الناهي في أي علاقة مع الجنس الآخر:

وإن تك قد ساءتك مني خليقة

فسلّي ثيابي عن ثيابك تنْسلِ

وهو فوق ذلك البطل المقدام:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً

عليّ حراصاً لو يُسرون مقتلي

وهو، من قبل ومن بعد، الملك المطاع:

خرجت بها أمشي.. تجرّ وراءنا

على أثرينا.. ذيل مُرط مرّجلِ

وفي معلّقة طرفة بن العبد لا نكاد نعثر على شيء يتجاوز الشاعر/ الملك وخريطته النفسية. هو المقدام الجريء:

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلتُ أنني

عُنيتُ.. فلم أكسل.. ولم أتبلّدِ

وهو المنعّم المرفّه:

نداماي بيض كالنجوم.. وقينةٌ

تروح علينا بين بُرد ومجسدِ

وهو السخيّ المعطاء:

كريم يروّي نفسه في حياته

ستعلم إن متنا غداً أينا الصدي

وهو مرعب الأعداء (والأصدقاء):

أنا الرجل الضــربُ الذي تعــرفــونه

خــشــاشٌ كــرأس الحــيــة المتــوقــدِ

ربما كان هذا الغرور الملكي المتأجج هو الذي أثار حفيظة الملك الذي دبر لطرفة قتلته الشهيرة.

وفي معلقة عنترة يتغزل فارسنا بنفسه غزلاً لا يترك لابنة عمه الحسناء، ملهمة القصيدة!، من دور سوى دور الشاهدة على عظمة الشاعر/ الملك:

هلاّ ســألت الخــيل يا ابنة مــالك

إن كنت جــاهلــةً بما لم تعلمــي

تنتقل بنا المعلقة من بطولة عنترية إلى بطولة عنترية تفوقها. شاعرنا محط آمال الجميع:

يدعــون عنتــر والرمــاح كــأنهــا

أشطان بئــــرٍ في لِبــــان الأدهمِ

وهو الفارس المتعاطف مع حصانه (وعشق الخيول عادة ملكية تقليدية):

فــــازورَّ من وقع القنا بلبــــانهِ

وشكا إليّ بعــبــرة وتحــمــحمِ

وهو الملك الجواد الذي يترك الأسلاب للرعية:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني

أغشى الوغى، وأعفّ عند المغنمِ

وحتى في البيتين الغزليين الشهيرين المنسوبين إلى عنترة نجد أنفسنا مدفوعين دفعاً إلى الإعجاب بشجاعة الفارس الذي يذكر حبيبته والرماح تنهل من جسده والسيوف تقطر من دمه إعجاباً يكاد ينسينا المعشوقة الحسناء المبتسمة على طريقة تختلف عن الطريقة الجوكندية.

وتصل النرجسية في معلقة عمرو بن كلثوم، التي «ألهت بني تغلب عن كل مكرمة»، حدوداً تدخلها عوالم الفنتازيا السريالية. قبيلة الشاعر، والله يعلم كم كان عددها، تملأ البر كله والبحر كله:

ملأنا البر حتى ضاق عنا

وظهر البحر نملؤه سفينا

وأطفال القبيلة يولدون بطاقة عجائبية خارقة:

إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ

تخّر له الجبابر ساجدينا

وإرادة القبيلة قدر لا يُرد:

وإنا المانعون لما أردنا

وإنا النازلون بحيث شينا

ونساء القبيلة أجمل النساء وأصعبهن منالاً:

علـى آثـارنـا بـيـضٌ حـــــســـــانٌ

نـحــــاذرُ أن تقــــسم أو تـهــــونـا

حاول شعراء لا يحصون عبر تاريخنا الأدبي أن يجاروا فخر ابن كلثوم ولم ينجح منهم أحد، والسبب بسيط: لم يكن أحد من هؤلاء ملكاً حقيقياً كما كان شاعر المعلقة.

ولا نستغرب، في حقبة الملوك، إذا وجدنا الأعشى الشره النهم المتكسب بشعره يحاول أن يتزيّا بزي الملوك. هو العاشق الذي لا يقاوم:

قــــالت هـريرة لما جـــئت زائـرهـا

ويـلي عـليك وويـلي مـنـك يا رجـلُ!

وهو الشجاع الذي يُعجز عدوّه:

كناطحٍ صــخــرة يومــاً ليــوهنهــا

فلم يُضـــرها.. وأوهى قـــرنه الوعِلُ

وقبيلته أشد القبائل بأساً:

كــلا.. زعـــمــتم بأنـا لا نقــاتلكم

إنـا لأمــثــالكم - يا قــومنا! - قُـتُلُ

ولعل التناقض الظاهر بين شعر الأعشى وحياته كان عاملاً من العوامل التي أدت إلى ظهور تلك المقولة الشريرة التي ترفض أن تموت: «أعذب الشعر أكذبه».

كان الشعراء/ الملوك، بالإضافة إلى التغني بالشجاعة والسخاء مصدر الحكمة، وكانوا ينثرونها في كل قصيدة بشجاعة وسخاء. عنترة يصف السلوك اللائق تجاه الجارات:

وأغضّ طرفي حين تبدو جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

وحاتم طي (روبن هود الجاهلية) يقنّن قواعد الضيافة:

وإني لعبد الضيف مادام ثاوياً

وما فيّ إلاّ تلك من شيم العبدِ

وعروة بن الورد يوضح واجبات الملك العادل نحو رعيته:

أقسّم جسمي في جسوم كثيرةٍ

وأحسو قراح الماء.. والماء باردُ

ويمكننا أن نعتبر معلقة عبيد بن الأبرص سلسلة متصلة من الحكم المنظومة. كانت حكم الشاعر الجاهلي - في مجموعها - تأصيلاً وتأطيراً للقيم القبلية السائدة، ومن أجدر من الملوك بحماية الأوضاع القائمة؟ خلّد دريد بن الصمة أعلى القيم القبلية،

الولاء الأعمى، في بيت تاريخي دخل الذاكرة الجماعية العربية، ولا أحسبه ينوي الخروج منها:

وهل أنا إلاّ من غَـــزيّة إن غـــوت
غـويت.. وإن ترشـد غَـزيّةُ أرشـد (١)

وقعت النفس العربية في أسر الشعراء/ الملوك. لم يعد بوسع شاعر عربي أن يصف حصاناً ويفلت، نهائياً، من تشبيهات امرئ القيس. لا يزال منظّرو العبث، حتى وقتنا هذا، يجدون في معلقة طرفة التجسيد الأجمل لفلسفتهم. لم يظهر، عبر التاريخ العربي كله، منافس لحاتم وعروة في الكرم، ولا في أشعار الكرم. تحول شعر الملوك إلى ملك الشعر، وظل، إلى هذه اللحظة، النموذج المثالي، لما يجب أن يكون عليه الشعر الأصيل. يستعرض ابن قتيبة القوانين الحديدية التي تركها الشعراء/ الملوك تكبل من يجيء بعدهم من الشعراء:

وليس لمتأخر من الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين.. فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان؛ لأن

---

(١) يروي لنا الصحفي اللامع محمد حسنين هيكل أنه استشهد ذات يوم بهذا البيت أمام الرئيس جمال عبدالناصر، فما كان من الأخير إلا أن طلب منه أن يعفيه من «الشعر والفلسفة». هل كان التاريخ السياسي العربي سيتغير لو أن ذلك القائد الموهوب وجد قليلاً من الوقت للشعر والفلسفة؟ لا نعرف الإجابة، بطبيعة الحال، ولكننا نلاحظ أن الزعماء العرب المعاصرين يحسنون صنعاً لو ذكروا أنفسهم أن القبيلة تعرف، أحياناً، ما لا يعرفه زعيم القبيلة «الملهم».

المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل أو يصفهما؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد المياه العذب الجواري؛ لأن المتقدمين وردوا الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد؛ لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح.. (١).

ويمضي ابن قتيبة فيروي لنا قصة الإحباط الذي أصاب شاعراً حاول الخروج على هذه القوانين الحديدية:

قال خلف الأحمر: قال لي شيخ من الكوفة:

أما عجبت من قول الشاعر. قال:

أنبت قيصوماً وجثجاثا

فاحتمل له، وقلت أنا:

أنبت أجاصاً وتفاحا

فلم يحتمل لي (٢).

حتى سخرية أبي نواس اللاذعة الشهيرة من الذين يبكون على الأطلال لم تفلح في جعل معاصريه يقلعون عن العادة. بل إن أبا نواس نفسه اضطر في قصيدة من قصائده إلى العودة إلى بكاء الأطلال بناء على أمر مباشر من الخليفة.

---

(١) ابن قتيبة، مرجع سابق، ص ١٦ .
(٢) نفس المرجع والصفحة.